الفكر الإصلاحي الاقتصادي في كتاب (سراج الملوك) لأبي بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي ٤٥١-٥٢٠هـ/١٠٥٩-١١٢٦م

طالب الدراسات العليا: ماهر محمود العبدالظاهر

إشراف الأستاذة الدكتورة: اكتمال إسماعيل

قسم التاريخ – كلية الآداب والعلوم والإنسانية – جامعة دمشق

الملخَّص

شغل الإصلاح جانباً مهماً في مؤلفات المؤرخين منذ بداية عصر التدوين في العصر العباسي الأوّل، ومن الكتب التي تناولت الفكر الإصلاحي كتاب "**عيون الأخبار**" لابن قتيبة الدينوري، و"**الأحكام السلطانية**" لأبي الحسن الماوردي، و"**تصيحة الملوك**" للغزالي، و"**سراج الملوك**" لأبي بكر الطرطوشي، الذي يعدّ من طليعة رواد الفكر العربي والإسلامي في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي.

يمثل كشف اللثام عن فكر الطرطوشي في الإصلاح الاقتصادي وتأصيله تحدياً وواجباً على الباحثين، لما يحتويه من تراث العرب والمسلمين، ولذلك تكمن الدراسة الاقتصادية لبعض الأبواب في كتاب "سراج الملوك" إحدى المحاولات الجادة لإظهار إسهام علماء المسلمين في الحركات الإصلاحية التي تظهر بين الفينة والأخرى خلال التاريخ العربي الإسلامي.

يتضمن البحث مقدمة وعناوين عريضة أولها التَّعريف بالمؤلف، ثمَّ التعريف بكتابه، وبيّن الباحث تحت عنوان "الفكر الإصلاحي الاقتصادي عند الطرطوشي" أهم النقاط التي ترتكز عليها الدراسة، وبيّنَ أهمِّ الأفكار الاقتصادية التي ناقشها المؤلف في

معرض كتابه، وانتهى البحث بخاتمة بيّنت أبرز النقاط التي تم التوصـــل إليها في عرض الدراسة، من ثم قائمة لمصادره ومراجعه.

الكلمات المفتاحية: الفكر الإصلاحي الاقتصادي- أبو بكر الطرطوشي- سراج الملوك – الفكر- الاقتصاد- الإصلاح

Economic Reform Thought Of The Book (Siraj Almuluk) By Abu Bakr Muhammad bin Al-Walid Al-Fihri Al-Tartushi 451-520AH/1059-1126AD

Postgraduate student: Maher Mahmood Alabd Aldaher

Supervisor: Professor Ektimal Esmail

Department of History - Faculty of Arts and Humanities - Damascus University

Abstract

Reform occupied an important aspect in the writings of historians since the beginning of the era of blogging in the first Abbasid era. Among the books that dealt with reformist thought were the book "**Uyun al-Akhbar**" by Ibn Qutaybah al-Dinouri, "**Al'ahkam Alsultaniati**" by Abu al-Hasan al-Mawardi, "**Nasihat Almuluk**" by Al-Ghazali, and "**Siraj Almuluk**" by Abu Bakr al-Tartushi, who is considered one of the pioneers of Arab-Islamic thought in the fifth century AH/eleventh century AD.

Uncovering Al-Tartushi's thought in economic reform and rooting it represents a challenge and a duty for researchers, due to the heritage of Arabs and Muslims it contains. Therefore, the economic study of some chapters in the book "**Siraj Almuluk**" is one of the serious attempts to show the contribution of Muslim scholars to the reform movements that appear from time to time during Arab-Islamic history.

The research includes an introduction and broad headings, the first of which is an introduction to the, then an introduction to his.

Under the title "The Economic Reform Thought of al-Tartushi," the researcher clarifies the most important points on which the study is based, and clarifies the most important economic ideas that the author discussed in his book exhibition, and it ends. The research concludes with a conclusion that shows the most important points reached in presenting the study, then a list of its sources and references

Key words: Economic reformist thought - Abu Bakr Al-Tartushi - Siraj Al-Muluk - Thought - Economics - Reform.

مقدمة:

تُشـــكل كتب التراث العربي الإســـلامي حيزاً مهماً في منظومة العلوم والمعرفة في الحضـارة العربيّة الإسـلاميّة، وقد بذل العلماء المسـلمون الأوائل جهداً كبيراً في تدوين هذا التراث، للحاجة الماســة إليه في تنظيم حياتهم وتوفير حاجياتهم أولاً، وللاســتفادة منه في مواجهة وحل المشـكلات التي تعترضـهم ثانياً، وليبقى إرثاً عربياً إسـلامياً لا غنى عنه في العصور اللاحقة ثالثاً.

ومن كتب التراث التي تخصــصــت في الفكر الإصــلاحي الســياســي والاجتماعي والاقتصـادي وحتى التعليمي والتربوي، كتاب "سراج الملوك" لأبي بكر الطرطوشي، صنّفه خلال إقامته في الإسـكندرية في العصـر الفاطمي في مصـر ٣٥٨-٥٦٧هـــ/٩٦٩-١١٧١م، وقدمه هدية للوزير الفاطمي بدر الدين الجمالي عســـى أن ينفعه ويُدخله حيز التطبيق في وزارته، وهي محاولة إصـلاحية رآها المؤلف ضـرورية على الأقل في مجتمعه في الإسكندرية.

يعد الفكر الإصــلاحي المحور الأســاســي لكتاب ســراج الملوك، وقد اختصّ الباحث الأبواب المتعلقة بالاقتصـاد لدراسـة الفكر الاقتصـادي الإصـلاحي لدى المؤلف، إذ شكّلت

أفكاره ركيزة رئيسة للإصلاح في عصره، والتي تناولت موضوعات الخراج وبيت المال والإنفاق، وسيرة العمال في وظائفهم، بحيث يقدّم الطرطوشي برنامجه الإصلاحي عن طريق القَصَص التاريخي وتقديم العبرة والموعظة من سير الأنبياء والخلفاء والسلف الصالح.

قدَّم الطرطوشي فكره الإصلاحي الاقتصادي في صبغة دينية مستنداً إلى الروايات التاريخية من السلف ولا سيما من الخلافة الراشدة، إذ إنه قّلما يعقّب، مبتعداً عن إبداء رأيه الخاصّ، وكأنه يقدّم فكره بلسان من يروي عنهم بلا تعديل أو تغيير، إذ يراه متكاملاً لا ينقصه من البيان والتوضيح سوى التفكّر.

- **إشكالية البحث وأهميته:**

تتمثل إشكالية البحث في افتراض وجود فكر إصلاحي اقتصادي في كتاب أبي بكر الطرطوشي "سراج الملوك"، إذ إن الكتاب على كثرة أبوابه، يتضمن أربعة أبواب فقط تخص الاقتصاد، حيث أن الكشف عن هذا النوع من الفكر، يحتاج إلى دراية بعلم الاقتصاد والشريعة الإسلامية، وعلى هذا تشكل برهنة وجود فكر إصلاحي اقتصادي في الكتاب سالف الذكر إشكالية وجب البحث فيها وبيان حقيقتها من عدمها.

- **أهداف البحث وأسئلته:**

يهدف البحث إلى التعريف بالمؤلف والإضاءة على شخصيته، والكشف عن جوانبها قدر المستطاع، والتعريف بكتابه "سراج الملوك"، ومعرفة دوافع تصنيفه، والكشف عن أهم الآراء والأفكار الاقتصادية التي جاء بها، ويجيب البحث عن بعض الأسئلة التي تدور حولها الدراسة، ومنها: هل كانت رؤية المؤلف الإصلاحية الاقتصادية جديدة في عصره؟ هل جاءت الأبواب التي خصصها في كتابه للإصلاح الاقتصادي مفيدة في جملة كتب التراث العربي والإسلامي في مجال الفكر الاقتصادي؟ هل كانت أفكاره سباقةً لعصره أم أنها كانت متأخرة في هذا النوع من ميادين العلم والمعرفة؟

- **منهج البحث:**

اعتمد البحث المنهج الاستقرائي التاريخي، ثم المنهج التحليلي، وذلك باستخراج الأفكار الاقتصادية المتعلقة بموضوع الدراسة من كتاب "سراج الملوك" وتحليلها تحليلاً علمياً وموضوعياً بعيداً عن الأهواء والميول الشخصية، ومن ثَمَّ الوصول إلى الآراء والأفكار التي توضّح رؤية الفكر الإصلاحي الاقتصادي لدى أبو بكر الطرطوشي.

أولاً: التعريف بالمؤلف: أبو بكر الطرطوشي (٤٥١-٥٢٠هـ/١٠٥٩-١١٢٦م)

هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب، القرشي الفهري، الطرطوشي، المعروف بابن أبي رَندقة[١]، وذكر الحنبلي بأنه معروف بابن أبي زيد، ولد ونشأ في مدينة طرطوشة[٢] الأندلسية سنة ٤٥١هـ/٥٢٠م، وهي أحد أهم الثغور في مملكة سرقسطة[٣] في الأندلس آنذاك، والده الوليد كما سلف ذكره، ينتهي نسبه إلى قريش، ومن الواضح عروبة الطرطوشي البحتة، ولا يُعرف السبب الحقيقي لكنيته بأبي رندقة، على الرغم من أن هذه الكلمة إفرنجية الأصل. (الزركلي: ٢٠٠٢م، ج٧، ص١٣٣،١٣٤) (ابن خلكان، د.ت، ج٤، ص٢٦٢) (الضبّي، ١٩٨٩م، ج١، ص١٧٩) (ابن تغردي بردي، ١٩٩٢م، ج٥، ٢٣١،٢٣٢) (ابن بشكوال، ١٩٨٩م ، ج٣، ص٨٣٨،٨٣٩) (الحنبلي، ١٩٨٩م، ج٦، ص١٠٢-١٠٤) (الحموي، ١٩٧٧م ، ج٤، ص٣٠،٣١) (المقري،

---

[١] رُندقة أو رَندقة: لفظة إفرنجية، مكونة من مقطعين معناها "تعال إلى هنا". (ابن خلكان، د.ت، ج٤، ص٢٦٥)

[٢] طرطوشة: مدينة بالأندلس، وكانت آخر بلاد المسلمين، وهي شرقي بلنسية وقرطبة، قريبة من البحر، وهي متقنة العمارة ومبنية على نهر أبرُه، وفيها بلاد واسعة تعد من جملتها، وهي مدينة تجارية. (الحموي، ١٩٧٧م ج٤، ص٣٠،٣١) (المقري، ١٩٨٨م، ج٢، ص٨٧)

[٣] سرقسطة: بلدة مشهورة في الأندلس، اشتق اسمها العربي من اسمها الروماني Caesar Augusta، تتميز بموقع حصين ومنعة أسوارها، وقد مثلت منذ عهد الإمارة زعامة الأسرة العربية والرياسة العربية في الثغر الأعلى للأندلس، واستمرت خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، سيطر عليها المرابطين سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م، ثم سقطت سنة ٥١٢هـ/١١١٨م بيد الإسبان. (الحموي، ١٩٧٧م، ج٣، ص٢١٢-٢١٤) (عنان، ١٩٩٤م، ج٣، ص٨٦)

١٩٨٨م، ج٢، ص٨٨) (حاجي خليفة، ١٩٤١م، ج٢، ص٩٨٤) (الشـــيال، ٢٠٠١م، ص٥٠-١٠٠)

لم تذكر المصادر التاريخية شيئاً عن أسرته، سوى رواية الطرطوشي نفسه في كتابه "سراج الملوك" عن خال والدته، يُدعى ابن فتحون، وتتحدث هذه الرواية عن شجاعة ابن فتحون الكبيرة، وأن الخليفة المســـتعين بالله[١] كان يكنُّ له الاحترام والتقدير، ويعتزُّ بشجاعته ويلجأ إليه في المصائب الكبرى. (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٧٠١-٧٠٣)

ويبدو أن الطرطوشي نشأ من أسرة متوسطة الحال، حيث ذكر شيئاً من هذا القبيل من خلال تهكمه في حديثه الذي أورده في كتابه، فعندما أراد السفر والخروج من الأندلس إلى بلاد المشرق لم يكن يعرف من وسائل الكسب شيئاً، سوى العمل في البساتين، وهي مهنة لم تكن لتوّفر النفقة الكافية للسفر إلى المشرق وخاصة بما يُعرف عن طول الطريق (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٦٦٥)، والواضح أنها كانت من أكبر مشاكله، وأن باله منشـــغل في أمر النفقة، ويبدو أنه بقي على نفقة والده حتى أصـــبح عمره خمس وعشرين سنة، عندما ارتحل إلى بلاد المشرق طلباً للعلم، ويمكن القول أن والده كان من المشـتغلين بالعلم، لهذا وجّه ابنه هذه الوجهة التي يرضـاها، ووفّر له المال للسير فيها. (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص١٣) (الشيال، ٢٠٠١م، ص٥٠-١٠٠)

بدأ الطرطوشي مسيرة تعليمه في مسجد طرطوشة الكبير، وتلقى فيه علوم الفرائض والحساب، وتتلمذ في العشرينات من سنه على يدي أبي الوليد الباجي[٢]، وكان بصحبته

---

[١] المستعين بالله: هو سليمان بن محمد بن هود، استطاع انتزاع عرش سرقسطة سنة ٤٣١هـ/١٠٣٩م من أيدي بني تجيب، دارت بينه وبين المأمون بن ذي النون حرب ضروس كانت شؤماً على المسلمين، توفي بعد ثمانية أعوام من حكمه سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م واستلم ابنه أحمد الملقب بالمقتدر. (عنان، ١٩٩٤م، ج٣، ص٢٧١-٢٧٣)

[٢] أبو وليد الباجي: سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب التجيبي نسبة إلى قبيلة تجيب العربية، التميمي نسبة إلى قبيلة تميم، الباجي نسبة إلى المدينة الأندلسية باجة، ولد سنة ٤٠٣هـ/١٠١٣م، نشأ في أسرة أندلسية ذات علم ودين

في سرقسطة، وتلقى منه مسائل الخلاف وسمع منه وأجازه فيها، وذكرت المصادر التاريخية أن الطرطوشي أخذ الأدب من ابن حزم الأندلسي. (ابن خلكان، د.ت، ج٤، ص٢٦٢) (المقري، ١٩٨٨م، ج٢، ص٨٨)

وهنا لا بد من التذكير أن ابن حزم الأندلس توفي سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م، وبالمقارنة بين ولادة الطرطوشي ووفاة ابن حزم، يُلاحظ أن الطرطوشي كان يبلغ من العمر خمس سنوات، ومن هنا يمكن استبعاد هذه الرواية، والقول أنه غالباً قد قرأ أدب ابن حزم على أحد تلامذته أو أخذه بنفسه من كتبه.

غادر الطرطوشي بلده سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣، والمعروف عن طلاب العلم القادمين من بلاد المغرب عموماً أن تكون الوجهة الأولى لهم هي الديار المقدسة، والرغبة بالابتداء برحلة علمية بأداء مناسك الحج، وطلب العلم في مكة المكرمة مهد الديانة الإسلامية، ويذكر أحد أصحابه[١] ممن درسوا معه في سرقسطة، أنه أخذ عن الطرطوشي أكثر السنن لأبي داود عن التستري[٢]، وهذا يدل على أنّه درّس في مكة خلال فترة إقامته الغير معروفة بالتحديد.

يستطرد صاحب الطرطوشي حديثه، بأنه لقيه أيضاً في بغداد بعد مدة، وبغداد حينئذ مركز الخلافة العباسية، ومقصد طلاب العلم من مشارق الأرض ومغاربها، حتى أن الطرطوشي يذكر في كتابه حين حط رحاله في بغداد عن وضعها العلمي، ويشيد بالوزير

وفقه، وتنقل بين مدنها، رحل إلى المشرق الإسلامي سنة ٤٢٦هـ/ لطلب العلم، وأقام بالحجاز والعراق والشام، وتولى القضاء في حلب وفي مدن أندلسية مختلفة، توفي سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م. (القاضي عياض، ١٩٨٣م، ج٢، ص٨٠٨) (الحموي، ١٩٧٧م، ج١١، ص٢٤٩) ؛ (ابن فرحون، ١٩٧٢م، ص١٢٢) (الضبي، ١٩٨٩م، ص١٨١)؛ (الذهبي، ١٩٨٤م، ج١٨، ص٥٣٦)؛ (السيوطي، ٢٠١٠م، ص٥٢) (ابن بسام الشنتريني، ١٩٨١م، ج٢، ص٩٥)

[١] وهو القاضي أبو علي الحسين بن محمد بن فرو الصدفي. (الشيال، ٢٠٠١، ص٥٧)

[٢] التستري: علي بن أحمد بن علي بن إبراهيم بن بحر، أبو علي التستري، البصري السقطي، وأصله من تستر في الأهواز من بلاد خوزستان، وكان العلماء يرتحلون إليه لسماع سنن أبي داوود، وكان وجهاً من وجوه البصرة في الحال والمال، وكان حسن المعتقد، صحيح السماع، ت٤٧٩هـ/١٠٨٦. (الذهبي، ١٩٩٤م، ج٣٢، ص٢٦٩)

السلجوقي نظام الملك[١] بعنايته بالعلم والعلماء (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٥١٣)، وكانت المدرسة النظامية التي بناها نظام الملك قد افتتحت أبوابها لطلاب العلم قبل وصول الطرطوشي بسنوات قليلة، وقد تتلمذ فيها على أيدي كبار فقهاء الشافعية والحنبلية. (الحموي، ١٩٧٧م، ج٤، ص٣٠) (الشيال، ٢٠٠١م، ٦٠،٦١)

درس التصوّف ونبغ فيه، ويبدو أنه تأثر بالتصّوف حتى عدّه بعض المتصوفين من الزّهّاد، وتعلم الشعر من الشيوخ العراقيين، ومنهم أبي العباس الجرجاني[٢] وأبي محمد التميمي[٣]، ودليل ذلك استشهاده بالأبيات الشعرية في كتابه، وخلال إقامته في العراق زار مدينة البصرة، وأخذ العلم فيها على أيدي شيوخها. (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٨١) (الحموي، ١٩٧٧م، ج٤، ص٣٣)

توجه الطرطوشي إلى الشام بعد رحلته في العراق، ويبدو أنه بقي في العراق قرابة الأربع سنوات، وغادرها وهو بعمر الثلاثين (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص١٨)، وعمل بالشام بالتدريس بعد أن حصّل العلوم في العراق، فأقبل عليه الناس وأحبوه، وذاع صيته في بلاد الشام (ابن خلكان، د.ت، ج٤، ص٢٦٢)، وكان الغالب عليه الزهد

---

[١] نظام الملك: الحسن بن علي بن إسحاق بن العباسي الطوسي، ولد سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م، برع بالسياسة والإدارة والحرب، وزر للسلاطين السلاجقة، وكن رجلاً حكيماً عاقلاً، محباً للعلم والعلماء، توفي سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م. (ابن الجوزي. ١٩٩٢م، ج١٦، ص٣٠٢-٣٠٧) (اليافعي، ١٩٩٧م، ج٣، ص١٠٣-١٠٥)

[٢] أبي العباس الجرجاني: أحمد بن محمد بن أحمد الجرجاني نسبة إلى محل ولادته مدينة جرجان الفارسية، كاتب وشاعر وفقيه، غادر بلاد فارس إلى العراق، عاش في العراق في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وتتلمذ في بغداد وواسط على شيوخها وأخذ العلم عنهم، وتولى القضاء بالبصرة، ودرّس بها، وله عدة مؤلفات في الفقه الشافعي ومصنفات في الأدب، توفي سنة ٤٨٢هـ/١٠٨٩م. (السبكي، ١٩٦٤م، ج٤، ص٧٤-٧٦) (الشيال: ٢٠٠١م، ص٦٢)

[٣] أبو محمد التميمي: رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد، فقيه حنبلي واعظ، من أسرة ذات علم كبيرة، ومن كبار أهل بغداد وأجلهم، توفي سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م. (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٨٤) (الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣، ص٢٤٢) (أبي يعلى الفراء، ١٩٩٩م، ج٣، ص٤٦٤-٤٦٦) (الزركلي، ٢٠٠٢م، ج٣، ص١٩)

والتقشف والورع وكانت نفسه أبية، (ابن فرحون، ١٩٧٢م، ص٢٤٥)، حتى أن السلاطين والأمراء يسعون إلى بِرِّه ووصله، وكان يُعرض عنهم وعن مجالسهم، ويبالغ لهم بالنصح والإرشاد (ابن فرحون، ١٩٧٢م، ص٢٤٥).

زار الطرطوشي بيت المقدس وأقام فيها مدة، ويبدو أنه أراد رؤية أبي حامد الغزالي الذي لم تتسنى له رؤيته في بغداد، حيث خرج الطرطوشي من بغداد قبل أن يصل إليها الغزالي ويُعيَّن مدرساً في المدرسة النظامية سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م، انتقل بعدها إلى جبل لبنان وصحبه رجل يُدعى عبد الله السايح[١]، ثمَّ إلى مصر حوالي سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، وعلى هذا أمضى الطرطوشي حوالي عشر سنوات في الشام، ويبدو أنه تنقل في كبريات مدنها، مثل حلب وأنطاكية فإنه يشير إلى وصوله إلى هذه المناطق في كتابه (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٦٦٥) (الشيال: ٢٠٠١م، ص٦٩)، ويبدو أن رحيله إلى مصر جاء بعد وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق ٤٩٠هـ/١٠٩٦م، التي هددت فيما بعد الساحل الشامي ومدنه وبيت المقدس، وقد يكون هذا هو السبب الرئيس في توجهه إلى مصر، وعلى هذا يكون وصل مصر وعمره حوالي الأربعين سنة.

خرج الطرطوشي من جبل لبنان برفقة صاحبه عبد الله السايح، فوصلا منطقة رشيد[٢] وأقاما فيها مدة، وكان صاحب مصر وقتذاك الخليفة الفاطمي المستعلي بالله (٤٧٨-٤٩٥هـ/١٠٨٥-١١٠١م)، ووزيره الأفضل بن بدر الدين الجمالي[٣]، وقد سمع أهل

---

[١] لم يجد الباحث له ترجمة.

[٢] رشيد: بلدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وعلى ضفاف نهر النيل، بالقرب من مدينة الإسكندرية. (الحموي، ١٩٧٧م، ج٣، ص٤٥)

[٣] الأفضل بدر الدين بن عبد الله الجمالي، أرمني الأصل، اشتراه جمال الملك بن عمار الطرابلسي، وربّاه، وترقّت به الأحوال، ولّي عكا والشام أكثر من مرة، استدعاه الخليفة الفاطمي المستنصر بالله من عكا سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م، بعد تخبط أوضاع الخلافة الفاطمية في مصر والشام واليمن، ونصبه أمير الجيوش ولقبه بكافل قضاة المؤمنين "قاضي القضاة"، وهادي دعاة المؤمنين "داعي الدعاة"، وفوّض إليه جميع سلطاته، وأصبح بذلك صاحب الحلّ والعقد

الإسكندرية وعلى رأسهم القاضي ابن حديد[١] بوصول الطرطوشي إلى رشيد، مما يدل على شهرته وصيته حتى في مصر، فاتفقوا على اللقاء به ودعوته للتدريس في الإسكندرية لقلة العلماء فيها[٢]، ووصف ابن فرحون الحال بعد وصوله إلى الإسكندرية بعودة الرونق إلى المدينة من الناحية العلمية كما في السابق، ومحبة الناس له (ابن فرحون، ١٩٧٢م، ص٢٤٧).

بدأ فور استقراره بالإسكندرية بالتدريس على المذهب المالكي، وزادت شهرته وتجّمع الناس والطلاب في حلقاته، ولم يكن يلقي درسه ويصرف طلابه فحسب، بل كان يمشي معهم في معظم الأوقات، ويخرجون إلى البساتين والمزارع، ويتذاكرون جميعهم (ابن فرحون، ١٩٧٢م، ص٢٤٧)، وهذا إذ يمكن وصفه بالمتابعة التعليمية كما هو معروف في العصر الحالي.

تزوّج الطرطوشي من أحد أكبر بيوت في الإسكندرية، بيت بني عوف، المعروفين بالفضل والعلم والجاه، فالمرأة التي تزوجها هي خالة فقيه الإسكندرية أبي الطاهر بن

في الدولة، وكان له دور كبير في إزاحة ابن المستنصر نزار عن الخلافة وتنصيب الابن الأصغر أحمد، توفي الأفضل سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م. (الذهبي، ١٩٩٤م، ج٣٣، ص٢٣٥-٢٣٧)

[١] القاضي ابن حديد: أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد بن صمدون الكناني، الملقب بمكين الدولة، وقد تولى أكثر من واحد من أسرته منصب القضاء في الإسكندرية، وإلى جانب اختصاصاته القضائية فقد جُمعت إليه المالية والإدارية والضرائبية، ومدحه الشعراء كثيراً. (المقريزي، ١٩٩٧م، ج٢، ص٣٣٤) (المقري، ١٩٨٨م، ج٢، ص٢٩٢)

[٢] كانت السلطة الفعلية في مصر في يد الوزير الأفضل بن بدر الدين الجمالي في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر، فلما مات الخليفة، أسرع الوزير إلى مبايعة ابن الخليفة الأصغر أحمد، ولقبه المستعلي بالله، وعمل إلى إزاحة الابن الأكبر نزار ومعاداته، ففر نزار إلى الإسكندرية وعمل على استمالة أهلها وجيشها فبايعوه بالخلافة، مما دفع الوزير بالخروج بجيش كبير إلى الإسكندرية ومحاصرتها مدة، وألقى القبض على نزار وقتله، وانتقم الوزير من أهل الإسكندرية شر انتقاماً، حتى أنه قتل عدد من علمائها، وتعطلت الشعائر الدينية. (الشيال، ٢٠٠١م، ص٧٠)

عوف[١]، أحد تلامذة الطرطوشي، وسيكون خليفته في العلم، وكانت زوجته ذات مال وجاه، فأطلقت يد زوجها في أموالها، فتحسنت أحواله، حتى أنها وهبته داراً من طابقين، جعل الطابق السفلي أشبه بالمدرسة يتدارس فيها مع طلابه القادمين من خارج الإسكندرية، ويستضيفهم بها، والدور العلوي سكناً له ولزوجته (ابن فرحون، ١٩٧٢م، ص٢٤٥) (الشيال: ٢٠٠١م، ص٧١).

خلال إقامته في الإسكندرية خرج في زيارة إلى القاهرة، قاصداً الوزير الأفضل شاهنشاه، لتقديم النصيحة والوعظ الحسن، ويطلب منه الرفق في الرعية واستقبال المظلومين وإنصافهم، وهذا يدل على جرأة الطرطوشي الذي لا يخشى في الحق لومة لائم، وقد ضمّن كتابه هذه الموعظة، وهذا دليل على فكره الإصلاحي في سياسة المُلك، ورغبته في نشر العدل ورفع الظلم في البلاد.

عاد بعد زيارته القاهرة إلى الإسكندرية، وتابع تدريسه، فكثر طلابه، وكان إذا خرج في رحلة، خرج معه زهاء أربعمائة من طلابه، فحظي بإقبال كبير لدى تلامذته وصحبه، وتعدّ هذه الأعداد أشبه بالمواكب المهيبة واللافتة للانتباه، مما شكل حالة من المنافسة للقاضي ابن حديد، وخطورة على مركزه ومكانته، فجرَّ هذا الإقبال على الطرطوشي الوبال عليه، بحيث لم يعجب ذلك القاضي الذي تغيّر عليه، والمعروف أيضاً عن الطرطوشي بعدم محاباته لذوي الجاه والسلطان، وأنه لا يخشى من قول الحق في حضرتهم، ويمكن القول أنه أظهر في بعض فتاواه جانباً يعارض بها النظم والقواعد القائمة التي تأخذ بها

[١] أبو الطاهر بن عوف: إسماعيل بن مكي بن إسماعيل بن عيسى بن عوف الزهري، ينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، ولد سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م، وتتلمذ على يدي أبو بكر الطرطوشي، نبغ بين أقرانه وأصبح إمام عصره في المذهب المالكي في الإسكندرية، ورعاً زاهداً كثير التعبد والتواضع، توفي سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م. (الذهبي، ١٩٩٤م، ج٤١، ص١٠٢) (ابن تغردي بردي، ١٩٩٢م، ج٦، ص٩١)

الدولة[١]، وينتقد من العادات السائدة في المجتمع والتي تنافي الدين الإسلامي وأصوله حسب رأيه. (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٢٥)

على هذا المآخذ القائمة بين القاضي ابن حديد والطرطوشي[٢]، رفع القاضي شكواه إلى الأفضل شاهنشاه، والذي أرسل بدوره يطلب من الطرطوشي المثول بين يديه في القاهرة، والتقى به وعامله معاملة طيبة، ولكن أجبره على البقاء في الفسطاط[٣] في مسجد الرصد، ومنع الناس من حضور حلقاته، وعيّن له راتباً شهرياً، وسمح لخادمه بالبقاء معه، وبقي على هذا الحال شهوراً، حتى قُتل الأفضل شاهنشاه وتسلم بعده المأمون البطائحي[٤]، الذي كان يعلم ما حدث بين الطرطوشي والوزير الأفضل، فافرج عنه وأكرمه وقرّبه إليه. (الشيال: ٢٠٠١م، ص٧٧)

عاد الطرطوشي إلى الإسكندرية وتابع نشاطه التعليمي، وتفرّغ أيضاً لكتابة كتابه "سراج الملوك"، وأتم كتابته في سنة واحدة، وحمله سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م إلى القاهرة إلى الوزير الجديد المأمون البطائحي، لعله يكون مرشداً ومفيداً له في سيرته الوزارية.

استقبله المأمون البطائحي أحسن استقبال، فلما دخل عليه نزل من كرسيه وجلس بين يديه وكأنه تلميذه، وتناقشا في موضوعات كانت محط جدل، منها تلك المواضيع التي

---

[١] افتى الطرطوشي بتحريم الجبن الذي يستورد من الروم إلى الإسكندرية، حتى أنه ألّف في هذا الصدد رسالة صغيرة، وألّف كتاباً آخر أسماه "بدع الأمور ومحدثاتها". (الشيال، ٢٠٠١م، ص٧٥)

[٢] كان القاضي ابن حديد يخشى أيضاً من تكرار ما حدث بالأمس من مبايعة أهل الإسكندرية لنزار، وثورتهم ضد الأفضل، وأنهم يميلون هذه المرة مع أبو بكر الطرطوشي. (الشيال، ٢٠٠١م، ص٧٦)

[٣] الفسطاط: هي المدينة التي بناها عمر بن العاص بعد فتح مصر سنة ٢١هـ/٦٤١م، وتقع على ساحل النيل الشمالي، وهي أول عاصمة لمصر في ظل الحكم الإسلامي، إلى أن بنى جوهر الصقلي القاهرة ونقل إليها مركز الحكم في عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله. (الحموي، ١٩٧٧م، ج٤، ص٢٦١-٢٦٥)

[٤] المأمون البطائحي: الأمير بن الأمير محمد بن فاتك، أبو عبد الله بن أبي شجاع البطائحي، وزر للخليفة الفاطمي الآمر بالله أربع سنوات، كان جبّاراً متكبراً، وكان كريماً شهماً سفاكاً للدماء، قبض عليه الخليفة لما رأى من خيانته وموالاته لأخيه عليه سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م، واستصفى جميع أمواله، ثم قتله وصلبه بظاهر القاهرة سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م. (الذهبي، ١٩٩٥م، ج٣٦، ص٧٨) (الصفدي، ٢٠٠٠م، ج٤، ص٢٢٢)

يراها الطرطوشي منافية للشرع، ومن الضرورة مراجعتها، منها مسألة النظم المتبعة في الميراث، واتفقا على حل يرضي جميع الأطراف، وعلى أي حال فقد كان كتاب سراج الملوك متضمناً جميع هذه المسائل، ويحدد حقوق وواجبات كل من الراعي والرعية.

استقر الطرطوشي على أعقاب هذا الاتفاق في القاهرة لمدة شهرين، وقبل عودته إلى الإسكندرية، ذهب إلى الوزير يودعه ويطلب منه الموافقة على بناء مسجد في الإسكندرية، فأذن له، وكتب رقعة بالموافقة وطلب فيها من القاضي ابن الحديد الإشراف على البناء وأن تكون نفقته على مال ديوان الدولة. (ابن فرحون، ١٩٧٢م، ص٢٤٦) (الشيال: ٢٠٠١م، ص٧٧)، ويبدو من العلاقة الطيبة بين الطرطوشي والمأمون البطائحي قد أثمرت، وأن كتاب سراج الملوك لربما قد لاقى قبولاً لدى المأمون، إنما لا يعوّل الباحث أن يكون ذلك سبباً وحيداً وكافياً في تغيير سياسة الوزير تجاه الطرطوشي ومحاباته له، إلا أنه أحد الأسباب.

ومن ناحية أخرى فقد كان لأبي بكر الطرطوشي النتاج العلمي الخصب من المؤلفات في علوم مختلفة منها الفقه التفسير، ومسائل الخلاف، ومنها ما يتعلق بعلم السياسة، وفنون الحكم، ومنها أيضاً ما يعالج المجتمع وأحواله، ويبدو أنه كتب مؤلفاته بعد استقراره في الإسكندرية، ويبلغ عدد مؤلفاته زهاء العشرين مؤلفاً، موجود منها تسعة والباقي في حكم المفقود، وقد طُبع من التسعة كتابين، والمتبقي منها ما زالت مخطوطة، تنتظر نور التحقيق وكشفها للمكتبة العربية الإسلامية.

ومن مؤلفاته كتاب "مختصر تفسير الثعالبي"، ألفه أثناء مقامه في الشام، وكان يدرّسه في المسجد الأقصى، و"الكتاب الكبير في مسائل الخلاف"، وهو في خمسة أجزاء، و"كتاب الأسرار"، وقد أشار إليه في كتابه سراج الملوك (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص١٠)، و"كتاب الحوادث والبدع أو "بدع الأمور ومحدثاتها"، وهو كتاب محقق تمت طباعته سنة ١٩٥٩م، و"كتاب برُّ الوالدين"، ويبدو من عنوانه أنّه موجّه إلى الأبناء، و"كتاب نزهة

الإخوان المتحابين في الله"، و"كتاب رسالة العدة عند الكرب والشدة"، و"كتاب النهاية في فروع المالكية"، وأبرز كتبه كتاب "سراج الملوك"، وقد طبع في أكثر من طبعة، وتشمل مادته بعضاً من كتب التاريخ والأدب، ومن الأحكام السلطانية في السياسة والحكم وتدبير الممالك، وسيتم التعريف بالكتاب في عنوان مستقل. (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٣١) (الشيال، ٢٠٠١م، ص٨٢-٨٤)

الجدير بالذكر أن بعضاً من تلامذته النجباء الذين تخرجوا على يديه، ونبغ عدد منهم، خلفوه في حلقاته ومجالسه، وأصبحوا أعمدة الحركة العلمية فيما بعد، ومن أبرزهم سند بن عنان الأزدي[١]، وأبو الطاهر بن عوف الزهري، وأبو بكر بن العربي المعافري الإشبيلي[٢]، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله الملقب بن تومرت[٣]، مؤسس دولة الموحدين في المغرب.

انتقل أبو بكر الطرطوشي إلى جوار ربه سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م، وقيل في سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م، وصلّى عليه تلميذه أبو الطّاهر بن عوف، ودُفن في مقبرة وعلة، غربي

---

[١] سند بن عنان بن إبراهيم بن حريز بن الحسين بن خلف الأزدي، المكنى بأبي علي، لا يُعرف على وجه التحديد سنة ولادته، إلا أنه اشتهر كأحد نوابغ التلاميذ عن أبو بكر الطرطوشي، فأخذ عنه العلم والأخلاق، ولازم حلقته سنين طويلة، وكان من زهّاد العلماء وكبار الصالحين، توفي سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م. (ابن فرحون، ١٩٧٢م، ص٣٣٩)

[٢] أبو بكر بن العربي: محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العربي المعافري، الأندلسي الإشبيلي المالكي المذهب، ولد سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م، أحد الأئمة والحفاظ البارزين، ارتحل إلى المغرب ثم إلى الديار المصرية طلباً للعلم، وسكن في دمشق وبيت المقدس، ثم انتقل إلى العراق، ومكة والمدينة، وعاد إلى مصر، ومنها إلى بلاده الأندلس، توفي في المغرب سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م. (الذهبي، ١٩٨٤م، ج٢٠، ص١٩٧) (الضبي، ١٩٨٩م، ص٣٣٧)

[٣] محمد بن عبد الله بن تومرت المصمودي الملقب بالمهدي، مؤسس دولة الموحدين، ولد سنة ٤٥٨هـ/١٠٩٢م، ارتحل إلى بلاد المشرق طلباً للعلم، فدخل العراق ودرس بالمدرسة النظامية، وأخذ عن شيوخها العلم، ثم رحل إلى مكة لأداء فريضة الحج، ومنها إلى مصر، وقصد الإسكندرية وتتلمذ على يدي أبو بكر الطرطوشي، ثم أبحر إلى المغرب ولم يعمر طويلاً، كان عظيم الهمة، شديد الذكاء، فصيحاً أديباً، توفي سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩م. (الذهبي، ١٩٩٤م، ج٣٦، ص١٠٦) (الحنبلي، ١٩٨٩م، ج٦، ١١٦-١١٩)

سور الإسكندرية، جنوبي بابها الأخضر. (الضبي، ١٩٨٩م، ج١، ص١٧٩) (ابن بشكوال، ١٩٨٩م، ج٣، ص٨٣٩) (الحموي، ١٩٧٧م، ج٤، ص٣١) (ابن خلكان، د.ت، ج٤، ص٢٦٤) (الحنبلي، ١٩٨٩م، ج٦، ص١٠٤)

ثانياً: التعريف بكتاب سراج الملوك:

يعدّ كتاب "سراج الملوك"، من الكتب المهمة في فن السياسة والحكم، ويراعي القواعد والواجبات على طرفي الحكم الراعي والرعية، وقد جمع فيه من قصص الأنبياء وسيرهم، وآثار السلف الصالح، ومن حكم الحكماء ومواعظ العلماء، ونواد الخلفاء والسلاطين، وقام بترتيبه وتفصيل فصوله وأبوابه، ويذكر أن نتاج عمله في هذا الكتاب يُغني الحكيم عن مناقشة الحكماء، ويستغني به الملك عن مشاورة الوزراء. (حاجي خليفة، ١٩٤١م، ج٢، ص٩٨٤)

يذكر شوقي ضيف محقق كتاب سراج الملوك أن الدافع وراء كتابة الطرطوشي لكتابه هو طغيان الوزير الأفضل بدر الدين الجمالي، والذي سلف ذكر ما حدث بينه وبين الطرطوشي، وأن الكتاب جاء باعثاً لوعظ الملوك والحكام، وما ينبغي أن يأخذوا به من العدل الذي لا تصلح حياة الرعية بدونه، والسياسة الرشيدة التي لا تستقيم حياتها بدونها، سواء في تدبير أمور الملك ونظامه، والقواعد المتينة في تدوين الدواوين، ومعاملة الجند، وفرض الأرزاق، وسيرة الولاة والعمال، وجباية الخراج والأموال، أو فيما يصادف السلطان من الاضطراب، ومن الظلم وموقف الرعية منه سوء عاقبته، أو في الحروب ومكايدها وحسن تدبيرها، أو في صلاح السلطان بالعلم والعقل، والأخلاق التي تستقيم بها دنيا الإنسان وآخرته. (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٦)

احتوى الكتاب على أربع وستين باباً، وبعد معاينة الكتاب والاطلاع على عناوين أبوابه ومحتواه، تبيّن أن الكتاب يحوي أخبار بعض الأمم الماضية، التي وظفها الطرطوشي في خدمة تقديم رؤيته، والجدير بالذكر أن رؤيته الإصلاحية لم تقتصر فقط على المجال

الاقتصادي، بل تنوعت بين الإصلاح السياسي والحربي والقضائي، وقد تناولت بعض الدراسات الحديثة جانب الإصلاح السياسي والحربي لدى الطرطوشي (ربوح، ٢٠١٨م، ص١٥٣) (العبيدي، ٢٠٢٤م، ص٣١٣)، وتفرّد الباحث كأول دراسة للجانب الاقتصادي في كتاب سراج الملوك.

كما تضمن الكتاب أخبار بعض الملوك في أنحاء المعمورة، وخاصة ملوك الطوائف في الأندلس، وهنا يمكن القول أن المؤلف وظّف سياسة هؤلاء الملوك في قيادة ممالكهم ضمن رؤيته السياسية، فاستشهد بالصالح منهم، ومدح بأعماله، وحثّ على السير في خطاه، وجعل الطالح منهم عبرة تاريخية لمن يأتي بعدهم (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٢٣٩-٢٤٢، ٢٤٩-٢٥١).

جمع الطرطوشي من الحكم والمواعظ والنوادر من مختلف المشارب كالعرب والروم والفرس وغيرهم، فيُلاحظ أنه ذكر بعض الأنبياء وقصصهم والموعظة منها، ووظفها في مكانها المناسب، ومن أقوال الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين، وحكام الأندلس، وأعمالهم، والعبرة في ما كانت عليه سياستهم في إدارة المُلك بمجالاته المختلفة، وحوى كتابه أيضاً على ما دوّنه المؤرخين وعلماء الأمة من الوصايا والوعظ، مثل ما كتبه الجاحظ وابن قتيبة الدينوري، وابن عبد ربه، وعلى الطرائف والنوادر من أخبار الخلفاء وخاصة أبو جعفر المنصور والرشيد والمأمون، حتى أنه يضمّن بعض ما احتوته كتب الفرس والهند، مثل كتاب كليلة ودمنة، والتاج، وسيرة البعض منهم مثل برزجمهر، وللفلاسفة أيضاً نصيب في الكتاب، أمثال أفلاطون وأرسطاليس، حيث انتقى من أقوالهم حكماً وأمثالاً وظفها في سبيل إيصال فكره، كما ضمّنه الكثير من تجاربه الشخصية والحوادث التي جرت معه، وأضاف آراءه القيمة (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٧)، وهذا يدل على اطلاعه الواسع ومعرفته الواسعة لعلوم مختلفة مثل الفقه والتاريخ والأدب.

نهج الطرطوشـي في كتابه منهج الابتداء في بداية كل باب من أبواب كتابه بإيراد أهم السمات الواجب توفرها في صاحب الوظيفة أو المنصب الذي يريد التحدث عنه، ثم يورد الأمثال والقصـص التي تدعم رؤيته في أقواله، وقد يورد من آيات القرآن الكريم، الذي هو بحر العلوم، وينبوع الحكم، ومعدن السـياسـات، أو الحديث النبوي الشـريف، أو قصـص الأنبياء، وسـير الخلفاء والصـالحين، والملوك والوزراء ما يُطابق قوله، ويصـوّر بأسـلوب قصـصـي تاريخي التدابير الحكيمة في السياسـة، والحرب، والعمران، والعلم، وشـمل كتابه موضوعات عن الاقتصاد، وهو موضوع البحث.

ومن ناحية أخرى كانت لغة الكتاب واضـحة ومفهومة، يكثر في بناءها التشـبيهات، وهي كعادة مصادر التاريخ العربي الإسلامي، موسوعية المحتوى، ذات لغة متينة رصينة، تناسب أغلب فئات القرّاء.

ثالثاً: الفكر الإصلاحي الاقتصادي عند الطرطوشي من خلال كتابه سراج الملوك:

يشـير عنوان الكتاب "سـراج الملوك" إلى التفكير في مدلولاته، إذ إن كلمة سـراج تدل على التنوير وإضـاءة الطريق، بل إن دلالته هنا مخصـوصـة في إضـاءة الطريق للملوك والأمراء، وأهل الرئاسـة وأولي الأمر في جلّ أمرهم على اختلاف وظائفهم، ولا بد من التخصـيص في هذا الموضـع أن الباحث خصـص دراسـة الجانب الاقتصـادي من الفكر الإصـلاحي لدى المؤلف في هذا البحث، وعليه فإن كتاب سراج الملوك الذي يحتوي على أربع وستين باباً، يختلف موضـوع كل باب منها كما سلف ذكره، إلا أنه أفرد أربعة أبواب خاصة بالاقتصاد، وبموضوعات محددة، هي الأبواب الآتية:

الباب السـابع والأربعون: في سـيرة السـلطان في جباية الخراج. (أبو بكر الطرطوشـي، ١٩٩٤م، ص٤٩٥)

الباب الثامن والأربعون: في سـيرة السـلطان في بيت المال. (أبو بكر الطرطوشـي، ١٩٩٤م، ص٥٠٠)

الباب التاسع والأربعون: في سيرة السلطان في الإنفاق من بيت المال، وسيرة العمال. (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٥٢٠)

الباب الخمسون: في سيرة السلطان في تدوين الدواوين، وفرض الأرزاق وسيرة العمال. (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٥٣٣)

يُلاحظ من خلال عناوين هذه الأبواب تركيز المؤلف في فكره الإصلاحي الاقتصادي على ركيزتين رئيسيتين، يمثلان طرفي الإصلاح الاقتصادي، أولهما هرم السلطة أياً كان، سواء السلطان أو الحاكم أو الأمير أو حتى الجهاز الإداري المكلّف بالاهتمام بالأمور الاقتصادية، والثاني هو الموضوع الاقتصادي الأكثر أهمية فيما يخصُّ الطرطوشي، ولذلك يمكن القول أن الركيزة الأولى تبقى ثابتة، مع تعدد الموضوعات الاقتصادية، ومن ذلك إيراده سيرة السلطان وجباية الخراج، أو سيرة السلطان وبيت المال، وسيتم دراسة كل من الأبواب الأربعة على حدا على النحو الآتي:

١. في سيرة السلطان في جباية الخراج:

يتجلى الفكر الإصلاحي الاقتصادي لدى الطرطوشي في مستهل الباب السابع والأربعون، بالتنبيه إلى أن زوال المُلك والسلطة يبدأ بعدوان الحاكم على الرعية، وبالإشارة إلى أن القوة الاقتصادية التي تنشأ عن المال وكثرته، هي السبب في الإصلاح الاقتصادي، وذلك باستثمار هذا العنصر –المال– بعمارة الأرض، وتنميته بقطاعات الاقتصاد الثلاثة الزراعة والتجارة والصناعة، ويقرن عمارة الأرض بقوة السلطان، أي أنها مادة السلطة، وعمادها الأول، فبالمال يجنّد الجند، ويقصد هنا رواتب الجند والعسكر، وبذلك يرهب العدو، (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٤٩٥)، وعليه فإن الطرطوشي يرى أن المال يمثل قوة السلطان، وهو بهذا يربط القوة الاقتصادية بالقوة السياسية للدول، وفي الحقيقة فالمال في المجتمع المسلم يشكل ركيزة أساسية على الصعيد الفردي لحفظ

المرء لدينه وعرضه وأرضه، فإذا ما وضع في ميزان أكبر وهو الدولة، فإنه حماية لكيانها واستمرار لوجودها، وقد أشار الطرطوشي إلى أن المال مادة المُلك وذخيرته التي إذا أصابتها النوائب، استعانت به على قضاء حاجتها، ودفعت به لتمكين وجودها. (أبو بكر الخلال، ٢٠٢٢م، ص٢٧،٣٠،٣٩) (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٤٩٥)

برؤية المؤلف أن المال وسيلة في عمارة الأرض، فإنّه لا يغفل عن إقرانه بالعامل البشري المتمثل بالرعية، وبغض النظر عن أهمية عامل التنظيم، الذي لم يتطرق إليه، فإنه يرى في هذا العامل مادة الدول وأساس وجودها، والقائم الفعلي بعمارة الأرض بفكره وجهده، فلا يمكن تواجد الناس في دولة ما دون وجود مقومات لهذا الوجود، ويرى أنه ينتج عن التلاقح بين العامل البشري وعمارة الأرض عنصري الأمن والعدل، وهما من أهم سمات الدول المستقرة (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٤٩٥).

يشير الطرطوشي إلى أهمية المال وربطه بالعدّة والعدد في حالة الدفاع عن المملكة، وأنه ضرورة من ضرورات الإنفاق على مؤن الحروب واستجلاب الجنود وإنفاق رواتبهم، وشراء الأسلحة، وهذه بمجملها العوامل الرئيسة التي تحرك الجيوش للدفاع عن الدول. (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٤٩٥)

إن ما سلف ذكره عن المال وأهميته، وحرص المؤلف على ذكره في استهلال حديثه عن السلطان وسيرته في جباية الخراج، إنما يفضي إلى الدخول في صلب النصيحة التي بصدد أن يقدمها، ولكن لا بد هنا من التوضيح أن هذا المال هو المال المستجبى من الخراج، ولا بدّ أن يكون هذا المال في هذا النوع من الإيرادات حلالاً ومأخوذا بحقه، وليس قهراً أو ظلماً، وعلى ذلك فإنّه من الضروري أن يُنفق في حقه أيضاً، حتى تتكامل نصيحته على الوجهين اللذين أراد تقديمهما، الأول: الأخذ بالحق، والثاني: الإنفاق في الحق، وليس في وجوه السرف والتبذير، وإنما في إصلاح معاش الرعية، والحرص على نفعها (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٤٩٥)، ويُلاحظ أنه يشير إلى وضع هذا المال

في الإنفاق المخصص له في أمور الإصلاح الاقتصادي، وهي عمارة الأرض، والإنفاق على المشاريع التي تعود بالنفع على الرعية (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٤٩٥)، وبما أن موضوع هذا الباب اقتصادي يخصُّ الخراج، فيمكن أن تكون على سبيل المثال مشاريع الري، واستصلاح الأراضي، واتباع سياسة اقتصادية منصفة للفلاحين والمزارعين.

يتعلق الجانب الآخر من نصيحة الطرطوشي في كيفية إدارة العنصر البشري القائم على استجباء الأموال من الرعية، وذلك بتقديم التعليمات والإرشادات اللازمة في سير عملية الجباية، وهو ما يمثل الجانب الأخلاقي من هذه العملية، ومن ذلك حرصه على أن يتصرف عامل الجباية بالرفق، وأن يتجنب خرق القوانين الموضوعة في عملية الجباية، وعدم ارتكاب الحماقات (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٤٩٦)، ويمكن القول في هذه النقطة أن الهيكل الذي تُبنى عليه عملية جباية الخراج هو هيكل متعدد، يعدُّ عامل الجباية أصغر حلقة فيه، فإذا فسدت الحلقة الصغرى والتي هي على احتكاك مباشر مع من تجب عليه الجباية، فإنها تلحق الفساد ببقية الحلقات (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٤٩٦)، وهو بذلك يحذّر من خطورة إهمال انتقاء عمّال الخراج، وسلبيات التعسف في جبايته، والحقيقة أن التهاون في هذه المسألة يجلب الوبال على الحالة الاقتصادية لأي دولة في أي عصر، ويهدد وجودها، ولا ينفع في هذه الحال كثرة الأموال إذا ما انتشر الظلم، وقد أورد الأمثلة الداعمة لآرائه وأفكاره في هذا الجانب، ومن ذلك ما ذكره جعفر بن يحيى[١]، أن الخراج هو قوام المُلك، الذي لا يستقيم إلا به، وأنَّ كثرته لا تأتي إلّا بالعدل، وأن قلّته مقرونة بالظلم، الذي يسرّع في خراب البلاد وتعطيل النشاطات الاقتصادية المتنوعة (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٤٩٦).

[١] جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، ولد في بغداد سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م، وزر للخليفة العباسي هارون الرشيد، وتسلم له مقاليد الأمور كلها، حتى أطاح به الرشيد وبعائلته وقتله سنة ١٧٨هـ/٧٩٤م. (ابن الخطيب البغدادي، ٢٠٠١م، ج٨، ص٣٠) (ابن خلكان، د.ت، ج١، ص٣٢٨-٣٤٦) (الزركلي، ٢٠٠٢م، ج٢٢، ص١٣٠)

حتى أنه يرى في السلطان الذي يحمّل أهل الخراج ما لا يحتملونه كالذي يقطع لحمه ويأكله، ومن أبرز الآثار السلبية التي يتسبب فيها الظلم على أهل الخراج أنهم –المزارعين أو الفلاحين– يعجزوا عن عمارة الأرض والاستمرار في النشاط الزراعي، ما يثبّط العزائم، ويتركون أراضيهم بالهجرة والهروب، فتتعطل الأرض، ويقلّ إيرادات الخراج، الذي بدوره يؤدي إلى ضعف الأجناد، فيطمع الأعداء في المملكة، وهذا هو سبب اختلال الدول التي يضعف اقتصادها وينعكس سلباً على سياستها، ويسرّع من انهيارها. (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٤٩٦)، ومثال ذلك ما سمعه الطرطوشي على لسان شيوخ بلاد الأندلس من الجند، حيث ذكروا له أن أمر بلاد الأندلس كانت في منعة من عدوهم لما كانت الأرض عامرة مقطعة للجنود، والأموال وافرة، والأجناد في أهبة واستعداد، إلى آخر أيام ابن أبي عامر[1]، الذي عيّن الجباة، ومنع عطايا الجند، فضعف الرعايا وهربوا، وضعفت عمارة الأرض والأجناد بذلك، وقوي أمر العدو على بلاد المسلمين. (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٤٩٨).

يُعالج الطرطوشي هذه المشكلة بالحثّ على حسن المعاملة مع المزارعين، ويرى برأيه أنه إذا كانت أمور المزارعين تسير على النهج الذي حدده الاقتصاد الإسلامي بقوانينه ونظمه، فإن ذلك ينعكس على حال الخلفاء والسلاطين بالإيجاب، لأنهم –المزارعين– مادة النشاط الاقتصادي (الزراعة)، وتفعيل هذا النشاط يتضافر فيه عنصرين أساسيين هما: السلطة الحاكمة، من خلال توفير الأمن والرعاية، وتوفير المياه، ووضع أنظمة ضريبية

[1] المنصور بن بي عامر: محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي عامر المعافري، نشأ في بيت علم ودين، طلب العلم في قرطبة فنبغ فيه وأصبح شاعراً بليغاً، وقد كان ذكياً طموحاً قوي العزم، اتّخذ دكاناً يكتب فيه العرائض، واشتهر ببلاغته وفصاحته، استطاع أن يدخل بهما إلى بلاط الحكم الأموي في الأندلس، أُعجب به الخليفة الأموي الحكم المستنصر، وولّاه القضاء والحسبة وإدارة الشرطة دار السكة، استولى على الحكم بعد وفاة الخليفة الحكم، غزا الممالك الإسبانية ٥٣ غزوة ولم يخسر بواحدة منها، توفي سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٢م. (ابن عذاري، ١٩٩٨م، ج٢، ص٢٩٧،٢٩٨) (المقرّي، ١٩٨٨م، ج١، ص٥٩٥)

عادلة، وغيرها من مستلزمات الزراعة، والعنصر البشري العامل على الأرض الزراعية (اليد العاملة) من خلال العمل بإخلاص وتفاني (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٤٩٦).

وينبّه أيضاً بشكل غير مباشر إلى خطورة الإقطاع العسكري وأثره السلبي على المملكة، وكما هو معروف أن عقد الاقطاع العسكري يشمل تأمين المُقطِع لعدد من الجنود وتوفير الأسلحة والمؤن لهم، وأن يكونوا على استعداد متى ما طُلب من المُقطع، فإذا اختل أحد بنود العقد، كانت للمُقطَع حجة الفسخ وترك الأرض، ويبدو أن الظلم والجور من أبرز ما تعرّض له الجنود المُقطَعين في الأندلس، مما دفعهم للهروب.

يدعو الطرطوشي السلطان إلى إدراك أن كل ما في يد رعيته من المال هو مدعاة للرضا والقناعة، وهو من مؤشرات حسن الحكم ونجاح السياسة فيهم، وأن الإنفاق في الإصلاح الاقتصادي لا يقلل من الثروة أو الهيبة، بل على العكس، فإنه يؤدي إلى التنمية والازدهار، ومع الحيطة والحذر من الوقوع في الإسراف والتبذير (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٤٩٧).

٢. في سيرة السلطان في بيت المال:

يعد بيت المال من أهم المنشآت الاقتصادية في العصور العربية الإسلامية، إذ إنّه يختزن الواردات من جبايات الدولة، ويخرج منه في وجوه الإنفاق المتعددة، ويشير الطرطوشي إلى أهميته بإفراده باباً خاصاً في سيرة السلطان في بيت المال، ويتبين من خلال تقديمه أن أولي الأمر الذين ساروا في سياستهم في بيت المال على نوعين، **الأول:** استأثر بالأموال وحبسها عن الرعية، وتعدّها للنوائب والمصائب، ومن أمثالهم ملوك الهند والصين والسند وبعض ملوك الطوائف والروم، **والثاني:** أغدق وأنفق على رعيته، إلى أن أصبحت الرعية الحامية الحقيقية للمُلك، ومن أمثالهم الأنبياء والمرسلين والخلفاء الراشدين،

حيث كانت الأموال المُجباة تُقسم من يومها، ومن كان غائباً وحضر يُقسم له، وتُفرّق جميع الأموال حتى لا يبقى منها درهم. (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٥٠٠)

يسوق الطرطوشي بعض الأمثلة عن حسن سياسة ولي الأمر في بيت المال، ولا خلاف أن يكون الرسول أول وأفضل من يُضرب به المثل، فلمّا فتح الله عليه بلاد اليمن، كانت تُجبى إليه الأموال فيوزعها في يومها. (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٥٠١).

ويتطرق إلى أن أحد أهم الجوانب الإصلاحية الاقتصادية في تحديد اليد العليا في التّصرف ببيت المال، ويرى أنه يعود إلى اجتهاد الإمام، وأنّه للغني والفقير، ولكن لا يجب أن يساوى فيه جميع المسلمين، وفي هذا دعوة أن يكون الخليفة أو وليّ الأمر عادلاً، وحريصاً على تحديد الشريحة المستحقة، ويتمثل تحديده لمستحقي الإنفاق من بيت المال في وجهين، **الأول:** أن بيت المال مخصص للإنفاق على الفقراء والمساكين والمحتاجين، وأن يحرص وليّ الأمر على أن يصل المال لمستحقيه بلا منّة ولا تفضيل، وهو أمر إلهي لا بدّ من الالتزام فيه ضمن مبادئ الشريعة الإسلامية، والوجه **الثاني:** يتجسد في إمكانية أخذ الأغنياء من بيت المال، ويبدو من السماح لهم بذلك مشروطاً بالنفع العام، أو هو أشبه بالتمويل للمشاريع ذات النفع العام، وتدلّ الأمثلة التي أوردها أيضاً أن مال الفيء يحق للغني والفقير، أي أن نوع المال الوارد يشغل دوراً في أحقية من يستحقه من الأغنياء (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٥٠٦).

يعد بيت المال في فكر الطرطوشي من ألدّ الأعداء للملوك، فهو مُهلِك سلطانهم، والواضح من كلامه أنه يقصد في حالة سوء إدارته، في حين أنه يرى في الجند المخلصين أفضل من بيت المال المليء، ويقدم نصيحته باستكثارهم لأنهم الذخيرة في حالة السلم والحرب، والبحبوحة والضيق، وبهذا يربط ضرورة الاعتدال في الأمرين: بيت المال والجند، ففي حالة ضعف أحدهما، فإن الآخر يعمل على تقويته، فعلى سبيل المثال إذا كان بيت

المال خاوٍ بسبب الإنفاق على الجيش والجند، فلا بدّ أن يكون ذلك الجيش قوي ومخلص بسبب أداء الملك لحقوقه وصرف رواتبه وتأمين مؤونته، وعلى النقيض من ذلك، فإذا كان بيت المال مليئاً بسبب الشّح والبخل بالإنفاق على الجيش، فسيكون ذلك الجيش هزيلاً ضعيفاً، لا يقوى على مجابهة الأعداء، ومآل ذلك إلى أن الأعداء يتجرأون على المملكة (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٥٠٢)، ويحثّ إلى اجتناب جمع الأموال في سبيل التقوي على الأعداء، ويرى أن مآل ذلك اختلال وضعف في الجند لعدم وصول حقوقهم المالية إليهم، ومن قلة أرزاقهم، وعلى هذه النتيجة يطمع الصديق ويتجرأ العدو لما يراه من ضعف في الجند، وكاستنتاج أخير يقول الطرطوشي: "وإذن كان الدفاع في الرجال لا في الأموال، وإنما يُدافع بالأموال بواسطة الرجال، لا شك أن بيت رجال خير من بيت مال". (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٥٠٢).

يسوق الطرطوشي دلائل من الخلافة الراشدة في سياسة السلطان في بيت المال، فيذكر لما فُتحت العراق جيء بالمال إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فاستأذنوه لإدخال المال إلى بيت المال، فرفض، وأصرَّ على أنه لا يؤوي تحت سقف بيت حتى يتم تقسيمه بين المسلمين، وذلك لأن عمر يرى أن المال ما إن يكثر في قوم إلا ووقع بأسهم بينهم (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٥٠٥،٥٠٦).

تدل الأمثلة التي ساقها الطرطوشي إلى ضرورة حرص السلطان على عدم جمع الأموال، بل على اصطناع الرجال، ودعوة لأولياء الأمر أن لا يغتروا بكثرة الأموال لديهم، وأن ينفقوا لإعداد الرجال وكسب إخلاصهم ووفائهم على أن يكنزوا الأموال، وعلى هذا يمكن القول أن المال كالسيف له حدّين أو وجهين، أحدهما أن يكون أداة تدمير، والآخر أن يكون أداة تعمير، وهذا يرجع لا محالة إلى شخصية الحاكم، ومدى ورعه من ظلمه.

يضيف الطرطوشي على بابه قصة يوسف عليه السلام، وهي من أبرز القصص التي تشتمل على أبعاد اقتصادية مهمة، منها الإدارة والتخطيط الاقتصادي وإدارة الأزمات،

ونظرة الإسلام إلى المال، والاستهلاك العادل، والأمن الغذائي، حيث أصاب مصر السنين العجاف، فطلب يوسف عليه السلام من ملك مصر أن يكون أميناً على خزائنها، حيث جاء طلبه بقوله تعالى: "قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ" (سورة يوسف، الآية رقم ٦٦)، وكانت الخزائن وقتذاك الأهرامات، فهي مستودع الغلّات، ووصف نفسه بالحفيظ الأمين، أي أنه ذو علم وبصيرة بما سيتولّاه، وهذه إشارة إلى أهمية التخطيط والتنظيم المالي وإقامة التوازن بين الموارد المالية والنفقات، وهنا لا بد من التذكير أن من يجب عليه أن يتولى مثل هذا المنصب أن يتوفّر فيه هذين الشرطين المعرفة والإدراك وأن يكون حفيظاً أميناً، ثم أصبح يوسف عليه السلام عزيز مصر، أي رئيس وزرائها كما هو معروف في العصر الحديث، وكان بيده الحلُّ والعقد، وسار في طريق الإصلاح وتوصيل الحقوق إلى الفقراء، فأصبحت مصر في عهده كثيرة الخير، وكانت تصل الأموال الكثيرة إلى خزائنها، وكانت السياسة المتبعة في هذه الأموال قائمة على أساس التوزيع العادل على الرعية، بحيث أن يوسف عليه السلام عامل رعيته وقومه بالعطف والإحسان إلى الفقراء، ويُنفق عليهم من الخزائن، ولا يرغب ما بأيديهم (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٥١٠)، وعلّق الطرطوشي على أحد ملوك مصر ولم يذكر اسمه، أنه عامل أهلها معاملة جيدة وأعقب بأن هذا الملك لا يعرف الله ولا يؤمن بيوم الحساب، فكيف بمن يقول لا إله إلّا الله، ويوقن بالحساب والثواب والعقاب، وهذه إشارة إلى أن الإسلام يحمل بما يحمله من القوانين والمبادئ والقيم، ما يمكن اعتباره ركيزة أساسية في المجال الاقتصادي في الجانب الأخلاقي (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٥١٠).

تتوضح السياسة الاقتصادية التي يدعو إليها الطرطوشي في إيراده لآلية العمل التي اتخذها يوسف عليه السلام في مصر، فقد كان يجمع المال من وجوه الجبايات، ويعمل على خطة توزيع الدخل وتأمينه في المجتمع، وخطته كانت على النحو الآتي: (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٥٠٧،٥٠٨)

١. عمارة البلاد، كحفر قنوات المياه والإنفاق على الجسور وإصلاح السبل.
٢. أرزاق الجنود، وكتّاب الدواوين، وغيرهم من الموظفين.
٣. ما يُفرض للأرامل والأيتام.
٤. ما يوضع في الخزائن لحوادث الزمان ونوائبه.

يدعو الطرطوشي إلى طاعة الله التي ترفع من قدر الإنسان وشأنه، وعلى كل حاكم أو مسؤول عدم وضع نفسه في مركز تأليه كما كان فرعون، ويبدو أن الغاية من هذه الدعوة ترتبط بنصـــحِ وليّ الأمر بالإدبار عن الدنيا وما تقدمه من مغريات كالإكثار من المال، والإقبال على الآخرة بالإنفاق على المحتاجين والفقراء والضعفاء، ويستشهد بموقف زُليخة عندما رأت يوسف عليه السلام بعد أن ذهبت قواها وتلف مالها وفني عمرها وعمي بصرها مدة طويلة من الزمن، وهي تتعجب من قدرة الله في قلب الموازين وتغيير المكانة بين الناس، في حين كان يوسف عبداً تم شراؤه في مصر، فأعزّه الله بالنبوة والمكانة العظيمة بطاعته، وكانت زُليخة ملكة في بلاط مصر فأذلّها الله بمعصيتها، وعلى الرغم من ذلك فقد عاملها يوسف عليه السلام بأحسن ما يُعامل به الأنبياء أقوامهم، وتزوجها وأنجب منها (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٥١٢،٥١٣).

إن العبرة الإصلاحية الاقتصادية المستقاة مما أورده الطرطوشي، تعبّر عن أهمية الجانب الأخلاقي في المعاملة الاقتصادية، ففي حين ينقسم الناس في عصره إلى أغنياء وفقراء، أقوياء وضعفاء، أسياد وعبيد، يوضّح العلاقة التي قد تربط بين كل متناقصين مما سلف ذكره، فعلى القوي على سبيل المثال أن لا ينسى الضعيف، وأن يرحم ضعفه، وعلى الغني أن يتصـــدّق على الفقير، وعلى الســـيد أن يُنفق على عبده، فلا يُعرف متى تتغير أقدار الله، فربَّ مطلوب يصير طالباً، وعبداً يصير سيداً، ومسؤول يصير سائلاً (أبو بكر الطرطوشـــي، ١٩٩٤م، ص٥١٢،٥١٣)، وقد كان عليه الســـلام رغم كل ما بين يديه من الأموال يجوع ويأكل خبز الشعير ولا يشبع، حتى قيل له أتجوع وبيدك خزائن الأرض؟؟؟

فيقول: أخاف أن أشبع فأنسى الجائعين. (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٥١٣)، وهذه دعوة للاقتداء بأفعال الأنبياء، والسير على نهجهم.

الجدير بالذكر في هذه العبرة أن الإسلام يتفرّد في إدراج الجانب الأخلاقي في المعاملات الاقتصادية، على العكس من الاقتصاد الوضعي المعروف في العصر الحديث، بحيث أنه لا يعدُّ للجانب الأخلاقي أهمية، إنما الأساس فيه هو حجم الأرباح فقط، بغض النظر عن الآثار السلبية التي قد تحصل لأحد طرفي المعاملة الاقتصادية، سواء أكانوا أفراداً أو مجموعات، أو شركات.

يُنهي الطرطوشي باب سيرة السلطان في بيت المال بالحديث عن مناقب الوزير السلجوقي نظام الملك، وعدّه ممن يُحتذى بهم في الإنفاق في المواضع الصحيحة، وما يهم في حديثه هو الجانب الإصلاحي الذي أشار إليه في شخصية نظام الملك وأعماله، فمنها أنه قام بدولة السلاجقة أحسن قيام، واستمال الأعداء ووالى الأولياء، ويُرجع الطرطوشي السبب في ذلك كله أن نظام الملك أقبل على مراعاة طلاب العلم وحَمَلة الدين، وأسس المدارس وأغدق على العلماء، حتى لامه السلطان ملكشاه على كثرة الإنفاق، فأجابه الوزير أنه كما للدولة جيش من الجنود والسلاح، يفتحون البلاد، لا بدّ لها من جيش العلماء والصالحين يفتحون أبواب السموات بالدعاء، ويقدم الطرطوشي رؤيته الإصلاحية من خلال الإشارة إلى الجانب الديني الذي أفرد له أهمية بالغة، وساق له الأمثلة والشواهد، وشدد على أن المنافسة تكون في هذا المجال أجدر من غيره، ففيها يكسب المرء العزة والذكر الحسن في الدنيا، والشرف في الآخرة، وحثَّ على انتهاز مثل هذه الفرص التي تخلّد اسم السلطان في الذكر بين الناس، وفي صفحات التاريخ، وأنه خير الادخار للآخرة (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٥١٨).

٣. في سيرة السلطان في الإنفاق من بيت المال، وسيرة العمال:

يُفرد الطرطوشي باباً لسيرة السلطان في الإنفاق من بيت المال وسيرة العمال، والواضح من خلال هذا الباب أنَّ جلّ كلامه عن سير العمال، إذ أن سيرة السلطان في بيت المال قد سلف الحديث عنها في الباب السالف، ويهدف من تخصيصه لهذا الباب استخلاص العبر والفائدة والموعظة من آثار السلف الصالح وسيرتهم في الوظائف الموكلة إليهم من باب الورع والزهد والتقشف في الدنيا، والتزوّد بالأعمال الصالحة للآخرة، أكثر من إيراده الحكم والأمثال والأقوال المأخوذة من أفواه الحكماء، فيُلاحظ ضربه للأمثال المثل تلو الآخر دون تعليق أو تعقيب، وحصر هذه السير في حقبة الخلافة الراشدة لما لها من صبغة الرّشد والتمكين في الأمور السلطانية وحسن التدبير.

تطرق الطرطوشي عن الإنفاق من بيت المال، وذلك بحديثه عن سيرة أبو بكر الصدّيق في إنفاقه على نفسه وعياله عندما تولى الخلافة، إذ أنه رفض في البداية أن يُنفق من بيت المال، ثم اقتنع من الصحابة على أساس التّفرغ للنظر في أمور المسلمين، وأن يُفرض له بالمعروف لا زيادة ولا نقصان، ولكن عند دنو أجله طلب من ابناءه حساب ما أنفقه من بيت المال ووصى أن تُرد من إليه (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٥٢٠،٥٢١).

وقد سار الخلفاء الراشدين من بعده على نفس النهج، حيث أنزل عمر بن الخطاب نفسه منزل وليَّ اليتيم، إذا احتاج من بيت المال أخذَ منه، وإذا توفر المال لديه ردَّه إلى بيت المال، وخصص لنفسه لباس في الصيف ولباس للشتاء، وما يركبه في موسم الحج، وقوته وقوت عياله، كقوت رجل من قريش لا من أغنيائهم ولا من فقرائهم. (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ،ص٥٢٣)، وكان علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه يلبس إزاران مرقعان بخرق، فقيل له: كل من خيرِ الطعام وألبس، واركب، فإنَّك ميت أو مقتول، فكان ردّه رضي الله عنه أن في هذا خير له في الصلاة، وأصلح للقلب، وهو أقرب بسنة السلف الصالحين

الذين سبقوه، والأجدر بالاقتداء من الخلف اللاحقين (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٥٢٧).

يذكر الطرطوشي من سير العمال في عهد عمر بن الخطاب غير واحد منهم، ويمكن ذكر بعض الأمثلة على النحو الآتي:

أ- تقشف أبو عبيدة بن الجراح في الشام عندما كان أميرها، وخلو بيته من أي مظهر من مظاهر الغنى والترف، واكتفاءه بكساء من الصوف، وآنيتي ماء وطعام، عد ذلك فإنه لا يجعل في بيته مالاً لا صباحاً ولا مساءاً، بل يوزّعه من وقته على الفقراء والمحتاجين (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٥٢٥،٥٢٦).

ب- كان سعيد بن عامر[١] أمير حمص عندما زارها عمر بن الخطاب، الذي أوصى بأن يكتبوا له بأسماء فقراءها، فكان من بينهم سعيد بن عامر، فتسائل عمر: كيف يكون أميركم فقيراً؟ فقيل له أنه لا يجعل لنفسه من المال شيئاً، فبعث إليه عمر بألف دينار يستعين بها على حاجته، فما كان منه إلّا أن ووزعها في سبيل الجهاد (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٥٢٩).

ج- كان عمير بن سعد[٢] ممن استعمله عمر بن الخطاب على حمص، فلما مضت سنة على تعيينه عليها، أرسل عمر في طلبه، فجاءه حافياً وبيده عكازته، وحوائجه على ظهره، فاستغرب عمر من حاله وسأله عن السبب، فأجاب عمير: "جئتكَ بالدُّنيا أجرُّها بقرابها"، والقراب أشبه بالكيس الجلدي يوضع فيه المسافر أدواته (أبو بكر

[١] سعيد ين عامر بن حذيم الجمحي القرشي، من صحابة رسول الله ﷺ، ومن الولاة، أسلم وهاجر إلىا لمدينة، وشهد فتح خيبر وما تلاها من المشاهد، ولّاه عمر بن الخطاب إمرة حمص بعد فتح الشام، وكان معروفاً بالزهد توفي في الشام سنة ٢٠هـ/٦٤٠م. الأعلام، ج٣، ص٩٧؛ حلية الأولياء، ج١، ص٢٤٤-٢٤٧؛ (ابن الأثير، د.ت، ج٢، ص٤٨٣) (الزركلي، ٢٠٠٢م، ج٣، ص٩٧)

[٢] عمير بن سعد بن شُهيد بن عمرو بن زيد بن أمية الأوسي الأنصاري، من فضلاء الصحابة وزهادهم، شهد فتوح الشام، واستعمله عمر على حمص، توفي عمير في أيام عمر بن الخطاب، وقيل عاش حتى شهد خلافة معاوية بن أبي سفيان نحو سنة ٤٥هـ/٦٦٤٥م. (ابن الأثير، د.ت، ج٤، ص٢٨٠) (الزركلي، ٢٠٠٢م، ج٥، ص٨٨)

الطرطوشـــي، ١٩٩٤م، ص٥٣٠)، فالدنيا عنده لا تتعدى كونها إناء ماء، ووعاء طعام، وعكازة يتوكأ عليها، وعلى الرغم من ذلك فهو يعدُّ نفســه من الأغنياء بما كفاه الله شـر عن سوى حاجته، وسـأله عن إمارته في حمص، فأجاب أنه أخذ الخراج من أهل الخراج، والجزية من أهل الجزية، ثم قسـمها بين الفقراء والمسـاكين وابن السـبيل (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٥٣٠).

أشـار الطرطوشـي إلى نقطة مهمة في معرض حديثه عن السـلف الصـالح، وهي أن عمر بن الخطاب كان يبعث رجالاً إلى عمّاله يقيمون عندهم كضـــيوف، يســـتطلعون أخبارهم وسـيرتهم في معاملة الرعية، لمعرفة نهجهم ما إذا كان صـالحاً وموافقاً للشـريعة الإسـلامية وأحكامها، وكان يرسـل إليهم الأموال لقضـاء حاجاتهم فيرى ما يصـنعون بها، وهذه دعوة إلى أولياء الأمر أن يراعوا في انتقاء عمّالهم، ويحرصـــوا على أن يكونوا ذوي علم وخلق ودين حتى يتســـنّى لهم القيـام بـأعمـالهم على أكمـل وجـه، ويؤدوا الحقوق لأصـحابها، ويذكر الطرطوشـي من ذلك أن عمر بن الخطاب أرسـل رجلاً إلى عمير بن ســـعد، وإلى أبو عبيدة بن الجراح، وإلى معاذ بن جبل، فما كان منهم إلا أن يقوموا بالتصـدّق بما أرسـله عمر إليهم على الفقراء والمسـاكين (أبو بكر الطرطوشـي، ١٩٩٤م، ص٥٣١،٥٣٢)، ولهذا كانت الخلافة الراشدة ورجالها خير ما يُضرب به المثل على كافة الأصعدة وليس فقط في الاقتصاد.

يمكن القول أن الأمثلة التي أوردها المؤلف، وبمقارنتها ما ورد بين صـــفحات التاريخ وكتب الشـــريعة الإســـلامية، تفضـــي إلى اعتماد آلية فاعلة في انتقاء عمال بيت المال، ووضـــع الشـــروط التي يجب توفرها في العامل، ويمكن إيرادها اســـتقاءً من الأمثلة التي أوردها الطرطوشي في كتابه على الشكل الآتي:

أ- العدالة والأمانة والصّلاح.

ب- الفقه في الدين، والزهد في الحياة.

ج- المعرفة في أمور الأموال، جيدها من رديئها.

د- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحقاق الحق. (أبو يوسف، د.ت، ص١٢٠) (الطوسي، ١٩٨٦م، ص٩٩)

٤. في سيرة السلطان في تدوين الدواوين، وفرض الأرزاق وسيرة العمال.

يعدّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه حسب الروايات التاريخية أول من اتخذ الدواوين وعمل على تنظيم ديوان لبيت المال، وأرسى قواعده، فانتظمت بذلك جباية الأموال وعمليات الانفاق، وفرض الأرزاق حسب معيار أهل السابقة في الإسلام، ثم الذين جاؤوا بعدهم، حتى شملت الأعطيات العامة، والأطفال، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه قبل ذلك يساوي بين الناس جميعهم، وكان يرى أن الناس عملوا بإسلامهم، والله يؤجرهم على أعمالهم في الدنيا، أمّا بالنسبة للمال، فكان يراه أنّه مادة دنيوية، وقد يكسبه المؤمن والكافر، البرّ والفاجر، ولا يمكن أن يكون أجراً لأعمال المسلم التي يبتغي بها الآخرة (ابن الأثير، ١٩٩٧م، ج٢، ص٣٣١) (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٥٣٣).

ويبدو أن الطرطوشي انتقى من أمثلته من عصر عمر بن الخطاب، حيث شهد عصره نقلة حضارية كبيرة تجسدت بعناية الخليفة بالنظام الإداري الذي شمل الدواوين والأرزاق، ومن أمثلته أنه قدّر الأرزاق في ولاية عمّار بن ياسر[١] على الكوفة، وأرسل إلى العراق غير واحد من الصحابة مثل عثمان بن حنيف[٢] وأجرى عليه العطاء بمبلغ خمسة آلاف

[١] عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة بن قيس الكناني المذحجي، أبو اليقظان، أحد الصحابة الأجلاء والسابقين إلى الإسلام، كان مولى لبني مخزوم، أسلم في دار الأرقم، وعُذِّب عذاباً شديداً، هاجر إلى المدينة وشهد بدر وأحد والخندق وبيعة الرضوان مع رسول الله ، وكان رضي الله عنه من أصحاب الرأي والمشورة، ولّي الكوفة في عهد عمر، ثم عزل عنها، شهد وقعتي الجمل وصفّين مع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، قُتل في صفّين سنة ٣٧هـ/٦٥٧م وعمره أربع وتسعين سنة. (ابن الأثير، د.ت، ج٤، ص١٢٢-١٢٨) (الزركلي، ٢٠٠٢م، ج٥، ص٣٦)

[٢] عثمان بن حنيف بن وهب الأوسي الأنصاري ، يُكنى بأبي عمرو، شهد أحد والمشاهد بعدها، واستعمله عمر بن الخطاب على سواد العراق، واستعمله علي بن أبي طالب كرم الله وجهه على البصرة، ثم سكن الكوفة بعد وقعة

درهم، وأجرى على عبد الله بن مسعود[١] مائة درهم في كل شهر، وعلى شريح القاضي مائة درهم، وكان عطاء سلمان الفارسي[٢] خمسة آلاف درهم (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٥٣٤).

وكان عمر رضي الله عنه يرسل لبعض عماله مالاً يقضون به حوائجهم لمعرفته بهم بالزهد والتقشف، فيأبى بعضهم أن يأخذ المال، إلا أن عمراً يصرُّ عليهم، ويستشهد بكلام النبي □ أنه إذا جاء هذا المال على هيئة العطاء من دون أن يعرض الإنسان نفسه عليه فعليه قبوله، فكان العمال يقبلون بهذا، ويأخذون المال، ويتصدقون ببعضه ويقضون حوائج أهلهم ببعضه الآخر (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٥٤٠)، وهذا يدل على الحرص على متابعة العمال والولاة، وهو عنصر مهم في نجاح العمل الإداري في أي عصر من العصور.

كما حرص الطرطوشي إلى الإشارة إلى عدم الإسراف في الأرزاق والأعطيات، ومن ذلك ذكره موقف عمر بن الخطاب من وفد أبي موسى الأشعريّ عندما قدموا إلى المدينة،

الجمل، وبقي إلى زمن معاوية بن أبي سفيان، توفي سنة ٤١هـ/٦٦١م. (ابن الأثير، د.ت، ج٣، ص٥٧١) (الزركلي، ٢٠٠٢م، ج٤ ص٢٠٥)

[١] عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب مخزوم الهذليّ، كان من السابقين إلى الإسلام، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله □، هاجر الهجرتين إلى الحبشة والمدينة، وصلى القبلتين، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله □، وشهد بعده اليرموك، وهو الذي قتل أبو جهل، وشهد له رسول الله □ بالجنة، ولّاه عمر الكوفة، توفي بالمدينة سنة ٣٢هـ/٦٥٢م، وكان عمره بضعاً وستين سنة، ودُفن بالبقيع. (ابن الأثير، د.ت، ج٣، ص٣٨١-٣٨٧)، (الزركلي، ٢٠٠٢م، ج٤، ص١٣٧)

[٢] سلمان الفارسي، أبو عبد الله ويُعرف بسلمان الخير، مولى رسول الله □، كان مجوسياً، وانتقل إلى الشام يريد المسيحية، ثم انتقل إلى الموصل يطلب رجل دين مسيحي، ثم انتقل إلى عمورّية يطلب رجل دين مسيحي، فأوصاه ببعث نبي الله محمد □، فجاء المدينة وأسلم رضي الله عنه، وكانت أول مشاهده مع رسول الله □ الخندق، وهو الذي أشار بحفر الخندق لما جاءت الأحزاب، ولم يتخلف بعدها، وآخى رسول الله □ بينه وبين أبي الدرداء، وكان من خيار الصحابة وزهّادهم وفضلائهم، توفي سنة ٣٥هـ/٦٥٥م. (ابن الأثير، د.ت، ج٢، ص٥١٠-٥١٥) (الزركلي، ٢٠٠٢م، ج٣، ص١١١)

فأنزله عمر في منزله، وأطعمهم من طعامه، فلم يكن يعجبهم، وذلك لشظف العيش وخشونته الذي يتخذه عمر في حياته، فطلبوا منه أن يفرض لهم من بيت المال، ففعل، وأوصاهم بالتوسعة على الناس والعيال (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٥٣٧).

ومن الأمثلة التي ساقها الطرطوشي أن امرأة مات زوجها دخلت على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو يعمل في الطين، فسألته أن يفرض لبناتها الثمانية أرزاقاً، ففرض لهن (أبو بكر الطرطوشي، ١٩٩٤م، ص٥٤١).

- **خاتمة:**

يعد الفكر الإصلاحي الاقتصادي الذي جاء به الطرطوشي وساقه ضمن فصول كتابه فريداً من نوعه، إذ إنّه لم يُصرّح بشكل مباشر بالنصيحة التي يقدمها للخليفة أو الملك أو وليّ الأمر بشكل عام، بل يُلاحظ أنه يسوقها ضمن إطار قصصي تاريخي، يشمل العبرة والأحكام والمبادئ الإسلامية، ويدعّمها بالأمثال والحكم التي اقتبسها من حضارات مختلفة.

ينطلق الفكر الإصلاحي لدى المؤلف من خلال ما قدّمه في الحثّ على المنفعة الاقتصادية العامة، وتقديم الرّشد والنّصح لأولياء الأمر، ويُرى إصراره على إيراد الروايات الأكثر داعمة لآلية عمل من الأعمال الإدارية في السلطة، سواء أكانت في بيت المال أو في العمّال أو في فرض الأرزاق، وتوضّح من خلال ذلك أهمية العمل ضمن منظومة الاقتصاد الإسلامي وأثره على الفرد والجماعة.

يمكن القول أن الطرطوشي بتأليفه كتابه "سراج الملوك" بأبوابه الاقتصادية السالفة الذكر، يسجّل وثيقة من وثائق تاريخ العرب والمسلمين في الفكر الإصلاحي الاقتصادي، ومساهمة تُضاف إلى مساهمات العلماء في ترسيخ وتطوير الفكر الاقتصادي العربي الإسلامي، وعلى الرغم من أنّه كان ناقلاً عن السّلف والسّنة، متصرّفاً في منقولاته، وغلب

عليه أنه لم يُبدِ رأيه في كثير من الروايات التي أوردها، إلا أنه كان انتقائياً دقيقاً، يضـــع الروايات المؤكدة في موضوعات محددة ضمن السياق المراد تقديمه.

•المصادر والمراجع:

١. ابن الأثير، علي بن محمد الجزري ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م. (د.ت). *أُسد الغابة في معرفة الصحابة*. ط: د.ط. دار الكتب العلمية: ٧٤٣

٢. ابن الأثير، علي بن محمد الجزري ت٦٣٠هـــــ/١٢٣٢م. (١٩٩٧م). *الكامل في التاريخ*. ط: ١. دار الكتاب العربي: ٤٥٣

٣.ابن بسام الشنتريني، علي بن بسام ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م. (١٩٨١م). *الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة*. ط: ١. الدار العربية للكتاب: ٧٤٠

٤.أبو بكر الخلال، أحمد بن محمد ت ٣١١هـــــ/٩٢٣م. (٢٠٢٢م). *الحث على التجارة والصـــناعة والعمل والإنكار على من يدّعي التوكل في ترك العمل والحجة عليهم في ذلك*. ط: ١. ٦٠

٥.أبو بكر الطرطوشي، محمد بن الوليد ت ٥٢٠هـــ/١١٢٦م. (١٩٩٤م). *سراج الملوك*. ط: ١. الدار المصرية اللبنانية: ٩٢٨

٦. ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك ت٥٧٨هـ/١١٨٣م. (١٩٨٩م). *الصلة*. ط: ١. دار الكتب المصري. دار الكتاب اللبناني: ٢٤٦

٧.ابن تغردي بردي، يوســف بن تغري بردي ت ٨٧٤هـــــ/١٤٦٩م. (١٩٩٢م). *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*. ط: ١، دار الكتب العلمية: ٣٥٢.

٨.ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي ت٥٩٧هـــ/١٢٠٠م. (١٩٩٢م). *المنتظم في تاريخ الملوك والأمم*. دار الكتب العلمية: ٥٠٧.

٩.الحموي، ياقوت بن عبد الله ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م. (١٩٧٧م). معجم *البلدان*. دار صادر: ٥٠١.

١. ابن خلكان، أحمد بن محمد ت٦٨١هـ/١٢٨٢م. (د.ت). *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*. دار صادر: ٤٩٠.

٢. خليفة، حاجي، مصطفى بن عبد الله ت١٠٦٧هـ/١٦٥٧م. (١٩٤١م). *كشف الظنون*. ط: ١. دار إحياء التراث العربي: ٢٠٥٦

٣. الخطيب البغدادي، أحمد بن علي ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م. (٢٠٠١م). *تاريخ مدينة السلام*. دار الغرب الإسلامي: ٧٦٨.

٤.الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م. (١٩٨٤م). *أعلام النبلاء*. ط: ١. مؤسسة الرسالة: ١٧٦٠

٥. الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م. (١٩٩٤م). *تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام*. ط: ١. دار الكتاب العربي: ٤٠٠

٦. ربوح، عبد القادر. (٢٠١٨م). تجربة الإصلاح عند أبي بكر الطرطوشي (ت٥٢٦هـ/١١٣٠م). مجلة دراسات وأبحاث المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية. المجلد١٠. العدد٤: ١٨

٧.الزركلي، محمد خير رمضان. (٢٠٠٢م). *الأعلام*. ط: ١٥، دار العلم للملايين: ٣٥٢.

٨. السبكي، عبد الوهاب بن علي ت٧٧١هـ/١٣٦٩م. (١٩٦٤م). *طبقات الشافعية الكبرى*. ط: ١. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه: ٦٠٠

٩.السيوطي، عبد الرحمن بن محمد ت٩١١هـ/١٥٠٥م. (٢٠١٠م). *طبقات المفسرين*. دار النوادر: ٦٢٤

١٠. الشيّال، جمال الدين. (٢٠٠١م). *أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي*. ط: ١، مكتبة الثقافة الدينية: ٢٧٢

١١.الصفدي، خليل بن إيبك ت٧٤٦هـ/١٣٤٥م. (٢٠٠٠م). *الوافي بالوفيات*. ط: ١. دار إحياء التراث العربي: ٢٩٦.

١٢.الضبي، أحمد بن يحيى ت٥٩٩هـ/١٢٠٣م. (١٩٨٩م). *بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس*. ط: ١. دار الكتب المصري. دار الكتاب اللبناني: ٧٣٤

١٣.الطوسي، نظام الملك ت٤٨٥هـ/١٠٩٢م. (١٩٨٦م). *سياسة نامة أو سير الملوك*. دار الثقافة–قطر. ط: ٢. ص: ٢٩٨

١٤. العبيدي، هند عبد الحق. (٢٠٢٢م). *الآداب السلطانية في كتاب سراج الملوك للطرطوشي*. المجلة السياسية الدولية. الموسوعة السياسية. العدد٥٢: ٢٨

١٥. ابن عذاري، أحمد بن محمد ت٧١٢هـ/١٣١٢م. (١٩٩٨م). *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*. ط: ٥. دار الثقافة: ٥٢٠

١٦. ابن العماد، عبد الحي بن أحمد ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م. (١٩٨٩م). *شذرات الذهب في أخبار من ذهب*. دار ابن كثير: ٦٠٠.

١٧. عنان، محمد عبد الله. (١٩٩٠م). *دولة الإسلام في الأندلس*. ط: ٢. مكتبة الخانجي: ٥٦٦

١٨. القاضي عياض. (١٩٨٣م). *ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك*. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: ٧٣٣

١٩.ابن فرحون (١٩٧٢م). *الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب*. دار التراث: ٥٦٠

٢٠.المقريزي، أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ/١٣١١م. (١٩٩٧م). *المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية*. ط: ١. مكتبة مدبولي: ٨٥٢

٢١. المقري، أحمد بن محمد ت. (١٩٨٨م). *نفح الطيب من غصن الأندلس* الرطيب. ط: ٢. دار صادر: ٧٢٦

٢٢. ابن منظور، محمد بن مكرم ت٧١١هـ/١٣١١م. (١٨٨٢م). *لسان العرب*، دار صادر: ٤٧٢.

٢٣. أبو يعلى الفرّاء، محمد بن أبي يعلى ت٥٢٦هـ/١١٣١م. (١٩٩٩م). *طبقات الحنابلة*. مكتبة الملك فهد الوطنية: ٦٤٣

٢٤. اليافعي، عبد الله بن أسعد ت٧٦٨هـ/١٣٦٧م. (١٩٩٧م). *مرآة الجنان وعبرة اليقظان*. ط: ١. دار الكتب العلمية: ٣٨٢

٢٥. أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم ت ١٨٢هـ/٧٩٨م. (د.ت). الخراج، تح: طه عبد الرؤوف سعد وسعد حسن محمد. المكتبة الأزهرية للتراث: ٢٧٦